# الدراسات الاستشراقية بين الموضوعية و الذاتية

د. فتح الله محمد - المركز الجامعي ، تيسمسيلت

**ملخص**

أصبحت النظرة لكل ما هو إنتاج استشراقي مشبوهة و مشوهة و هي نظرة ساقها الأدب الاستشراقي و الفن الاستشراقي من جهة، و رسخ الاستشراق الأكاديمي الموضوعية من جهة أخرى، و ذلك لانها مشبعة بالمناهج العلمية، بمعنى أن هناك نوعين من الدراسات الاستشراقية، و قد تكون في بعض الأحيان التفريق بين الاستشراق/ الاستشراقيات أكثر إضاءة و فائدة.

**Résumé**

Est devenu la perception de tout ce qui est production orientaliste suspect et déformé elle est une vision conduit par la littérature orientale et l'art orientaliste d'une part , et d'autre part l'orientalisme académique a établi l'objectivité, et que parce qu'il est saturé par les méthodes scientifique , dans le sens où il ya deux sortes d'études orientalistes , et peut être en parfois, la distinction entre l'orientalisme / orientalistik plus d'éclairage et de l'intérêt .

**مقدمة**

لطالما اهتم المستشرقون بالشرق و وصفوه وصفا يتأرجح بين الذاتية و الموضوعية، مما ولد إنتاج استشراقي يتصف بالمناورة و المراوغة ، و اجتهد في ذلك أكاديميون و أدباء و فنانون، و السؤال الذي يطرح نفسه على كل باحث مهتم بالدراسات الاستشراقية هو التالي: لماذا تأرجح الإنتاج الاستشراقي بين الموضوعية و الذاتية؟

**بدايات الاستشراق**

أما فيما يتعلق باستعراض بدايات الاستشراق، فالكثير من المتخصصين يرجعون بداياته إلى زمن تلاقي الإسلام المبكر مع الدولة البيزنطية، وخير دليل على هذا التماس الفكري يوحنا الدمشقي (650-750)، وهي شخصية تاريخية مثيرة للجدل خلفت وراءها عملان: الأول "حياة محمد"، والثاني "حوار بين مسيحي ومسلم". ومنهم من يرجع بداياته إلى زمن وصول الفتوحات الإسلامية إلى قلب أوروبا، والتي أوقفها شارل مارتل (690-741) (Charle Martel)، وقد قتل في معركة بلاط الشهداء الشهيرة عبد الرحمن الغافقي عام 732. ولعل هذا ما دفع بفرنسا بعد توقيفها الجيوش الإسلامية الفاتحة أن تصبح إمبراطورية وحامية للكنيسة الكاثوليكية تحت حكم شارلمان (742-814)(Charlemagne)، بل جعلت منها متزعمة الحروب الصليبية. وهناك من يعتقد أن ميلاد الاستشراق جاء مباشرة بعد صدور قرار فيينا الكنسي عام 1311، وهذا الأخير أمر بتأسيس كراسي للغات الشرقية في الجامعات الغربية.



المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

**تعريف الاستشراق**

كثيرا ما ينظر إلى الشرق على أنه مهد الحضارات البشرية، وأرض الديانات، ووطن الحكماء. ويكفينا للدلالة على ما نقول المثل اللاتيني الشهير (Ex Orient Lux) بمعنى النور يطلع من الشرق. ومما تجدر الإشارة إليه أن الاستشراق يدل على الاتجاه نحو الشرق لغويا، أما اصطلاحا فهو تيار فكري غربي.

وما دامت الأمور على هذا النحو فإنه لم يبق لنا من حيلة إلا أن ننخرط في إيجاد تعريف لمصطلح "مستشرق" ومستشرقين". مما يلاحظ أن مفهوم "مستشرق" لم يتم تحديده إلا بعد أن "أدرج في قاموس اللغة الانجليزية عام 1779، ثم تلاه بعد ذلك قاموس الأكاديمية الفرنسية عام 1799 [(1)] . ومن المفيد أن نبحث عن تعريف لمصطلح "مستشرق"، ولا يستطيع أحدا أن يقدم وصفا أو تحديدًا، بل ويسهم في توضيحه خير من ادوارد سعيد الذي يقول: "كل من يعمل بالتدريس أو الكتابة أو إجراء البحوث في موضوعات خاصة بالشرق، سواء كان ذلك في مجال الانثروبولوجيا أي علم الإنسان، أو علم الاجتماع، أو التاريخ، أو فقه اللغة، وسواء كان ذلك يتصل بجوانب الشرق العامة أو الخاصة، والاستشراق وصف لهذا العمل"[(2)].وهكذا أضحى الاستشراق" المؤسسة الجماعية للتعامل مع الشرق-والتعامل معه معناه التحدث عنه، واعتماد أراء معينة عنه، ووصفه، وتدريسه للطلاب، وتسوية الأوضاع فيه ووصفه: وباختصار بصفة الاستشراق أسلوبا غربيا للهيمنة على الشرق، وإعادة بنائه والتسلط عليه"[(3)].

**الطابع الفيلولوجي للدراسات الاستشراقية**

وعند ما نتصدى للحديث عن الاستشراق عموما، بالمقابل سيكون من المفيد أن نبحث عن تعريف للمنهج الفيلولوجي الذي يطبقه الاستشراق ذو الطابع الفيلولوجي، طبعا هذا ما تميز به المدرسة الاستشراقية الألمانية دون منازع، ليستقر التعريف على أن "المنهج الفيلولوجي (أي اللغوي) والتاريخي يطبق عادة على نصوص الحضارات القديمة والغابرة من أجل التحقق من صحتها، وصحة نسبها، وتثبيت معاني كلماتها، ومقارنة النسخ المختلفة للنص نفسه، بعضها بالبعض الآخر"[(4)].هكذا، نفهم أن الاستشراق ذو الطابع الفيلولوجي تميز بمركزية النص، بمعنى اعتماده على المخطوطات الكلاسيكية. وضمن هذه الشروط والتي لا تؤمن إلا بالآثار القلمية، قام الاستشراق بتقسيم العالم العربي-الإسلامي إلى فئتين: الأولى هي الشرق الأدنى الذي راح يمثل للغرب خزانة هائلة أو مصدرًا للمخطوطات العربية-الإسلامية، أما الفئة الثانية فهي المغرب العربي الذي لم يعطي له الأهمية ذاتها،لأنه لم يمثل مصدرا للمخطوطات، وهكذا همش الاستشراق الفيلولوجي المغرب العربي، ولكنه أصبح ميدانا خصبا للدراسة بالنسبة للأنثروبولوجيا. وإذا ما عدنا صعدًا إلى الوراء حتى بداية القرن التاسع عشر وجدنا الغرب نظر إلى الشرق عمومًا، والشرق الإسلامي خصوصًا على أنه "عالمًا نصيًا"بمعنى أن المستشرق الفيلولوجي يستند في أعماله على المخطوطات القديمة، بالطبع إن الاستشراق "في سنواته الباكرة مسألة نصوص



المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ومتون في الأساس، و بنا الغرب صورة الشرق وأفكاره من خلال وفي ضوء النصوص الشرقية المختارة والمرسلة إلى الغرب"[5].و هكذا كان للمخطوطات العربية النصيب الأكبر من الاهتمام من طرف الغرب.

**مستشرقون أكاديميون وأدباء وفنانون**

و قد نجاوب الصواب عندما نذهب إلى القول بأن المستشرقين أسهموا في تحويل الشرق إلى مادة معرفية غزيرة، وذلك بهدف البحث والدراسة، ولكن زوايا نظرهم للشرق قسمتهم إلى فئتين:

1- مستشرقون مختصون بالثقافات بمعنى الأدباء والفنانون، والذين أنتجوا شرقا متخيلا لا صلة له بالشرق الحقيقي، ولعله تجدر الإشارة ها هنا إن "الشرق المحلوم به" عند المستشرقين هو شرق خيالي مثله الكتاب والفنانون بهدف تغريب الشرق، والحقيقة التي لا يطالها شك هو أن الشرق "حسبما نقله الأدب المستورد أصبح نوعًا من الزينة والتسلية الحقيقية التي تغير من جو العقلانية المتزمت"[6]. من هذا كله يتبين لنا أن الصورة الخيالية للشرق داخل الروايات الرومانسية والغرائبية، واللوحات الفنية ما هي إلا صورة ابتكرها الكتاب الغربيون لتسير على إيقاع الملاحم البطولية كأنشودة رولاند أثناء الحروب الصليبية.

2- مستشرقون "جامعيون-أكاديميون"بمعنى مختصون في اللغات والثقافات الشرقية. ومما هو جدير بالذكر أنه لا يمكنا التكلم عن الاستشراق دون ذكر الهيمنة الامبريالية الأوروبية نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر، والتي بدأت بحملة بونابرت على مصر وحملة فرنسا على الجزائر، ثم على كامل الشرق تقريبا، والتي ساهمت دون شك في تدجين الشرقي، وتأميم ممتلكاته المادية وغير المادية، وخاصة ذاكرته المكتوبة، وضعتها في يد المستشرق الغربي والمبشرين والفنانين والأدباء.

**الفوقية والدونية / الذات والموضوع**

هناك جانب آخر لا يقل أهمية عن ما تقدم وهو أن الاستشراق أصبح علمًا قائمًا، وخاصة بعد حملة بونابرت على مصر عام 1798 انتهت بتأسيسه لعلم الإسلاميات (Islamologie) وعلم المصريات (Egyptologie)، وبالمقابل أرسى ويليامز جونز (W.Jones) في نفس الفترة الزمنية بالهند دعائم علم الهنديات (Indologie).

و هذا من شأنه أن يحول الشرق إلى مادة ميتة، بمعنى أن حضارة الشرق عمومًا، وحضارة الإسلام هي عبارة عن حضارة منقرضة مثلها مثل الحضارات القديمة الغابرة كاليونانية و المصرية. ومن هنا، أضحى الاستشراق حسب رؤية ادوارد سعيد "معرفة الشرق التي تضع كل ما هو شرقي في قاعة الدرس، أو في المحكمة، أو في السجن أن في الدليل المصور، بهدف الفحص الدقيق، أو الدرس، أو إصدار أحكام، أو التأديب، أو تولي الحكم فيه"[7]

وانطلاقا من هذا القول السابق سيساعدنا في تحليل ذهنية المستشرق الغربي والوقوف على نواياه، وهي من دون شك متجذرة في إطار الرؤية الاستشراقية، وهذا ما دفع بحسن حنفي للقول عن الاستشراق: "يعني



المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

رؤية الأنا الأوروبي للآخر اللاأوروبي...وكان نتيجة ذلك أن نشأ لدى الأنا الأوروبي مركب عظمة من كونه ذاتا دارسًا كما نشأ لدى الآخر اللاأوروبي مركب نقص من كونه موضوعًا مدروسا"[8] ،وعلى هذا النحو فان "الإنسان الأكاديمي الغربي المستَعْمِر"

(L'homo academicus occidentalis colonial)، هو وحده الذي يملك المعرفة. وهذا طبعا ما حقق له التموضع كذات عارفة وبالمقابل جعلت الشرقي كموضوع لهذه الدراسة[9]. ودامت الأمور على هذا النحو فإنه لم يبق لنا شك في أن للغربي "أسلوب تفكير يقوم على التمييز الوجودي والمعرفي بين ما يسمى "الشرق"، وبين ما يسمى (في معظم الأحيان) "الغرب" "[10]. وبهذا المعنى يمكن القول، أنه تم إلصاق قيم إيجابية بالغرب، مما جعله يتعالى ويتعامل مع الشرقي بـ "فوقية"، وبالمقابل تم إلصاق قيم سلبية بالشرقي، بل ووضعه في خانة "الدونية".

وسيتبين لنا مما سبق أن العلاقة بين الاستشراق والإسلام على الخصوص هي علاقة ذات بموضوع البحث، بمعنى "أنا عارفة غربية" أو كائن واع وعلاقته بموضوع هذا الوعي.

**الاستشراق و/أو الاستشراقيات أم ماذا ؟**

وكثيرا ما ينظر إلى الاستشراق على أنه ارتبط بقوة الاستعمار ، وبحركة التمسيح، وهذا ما أدى إلى تلقي هذا المصطلح في الأوساط الشرقية عموما بنوع من السلبية. وليس في استطاعة الغرب أن يدحض هذا المفهوم السلبي الملتصق بالاستشراق، إلا الطعن فيه علنا وتبديله بمصطلحات أخرى يتقبلها الشرقي، وهذا فعلا ما حصل في مؤتمر المستشرقين المنعقد بموسكو عام 1960، بيد أنهم لم يتوصلوا إلى نتيجة إلا في المؤتمر المنعقد بباريس عام 1973، بحيث أصبح في "الوقت الحاضر، الميول تتحدث عن "العلوم الإنسانية الأسيوية وأفريقيا الشمالية" ووصف المستشرقون باختصاصاتهم الثقافية والتاريخية، والإقليمية، وبتخصصاتهم النوعية"[11]. وقد نلجأ إلى تعليلات نبرز بها الموقف السابق ذكره، كأن نذهب إلى القول أن الوثبة الفكرية تمثلت في الخروج من الاستعمار إلى مرحلة ما بعد الاستعمار التي أدت إلى الاعتراف بالشرق وأقطاره السياسية كشريك، بل والاعتراف به كذات عارفة ونسج علاقة معه، ليصبحا سوية بمعنى الغربي والشرقي "الإنسان الكوني " (L'homo planétaire)، وطبعا هذا ما يؤكده هذا القول:" الذات و الموضوع في العلوم الاجتماعية لها طبيعة واحدة: الإنسان"[12].ومهما يكن من أمر فإن هناك فرقا بين الاستشراق التقليدي داخل إطار الاستعمار والاستشراق بعد الاستعمار ، حيث "احتراما لآخر والتعاطف الفكري للموضوع المدروس ستعوض على نحو تقدمي الأحكام (غير المنصفة والباطلة) الملقاة من الخارج"[13] ومثل هذا النوع من الاستشراق كل من لويس ماسينيون وجاك بيرك.



المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ومع هذا فإن هناك من دافع عن مصطلح الاستشراق وأكدوا أن الالتباس الحاصل يمكن في عدم إيجاد ترجمة مناسبة للمصطلح الألماني (Orientalistik) والمصطلح الآخر الذي يجب تمييزه عنه أي (Orientalismus)[14]. وإليكم ما ورد في الموضوع في القاموس ألماني-انجليزي حول كلمة Orientalistik (الاستشراقيات) التي تعني (علم)، وكلمة Orientalismus (الاستشراق) التي تعني فن وأدب[15]. ومهما يكن من أمر فإن هناك فرقا بين الاستشراقيات والاستشراق في عمومه، فالأول يعتمد على المعرفة العلمية، أما الثاني فيستند على الآراء الشخصية، وهذا حسب الرؤية الألمانية التي يعترف لها الكثير بموضوعية دراساتها. ذلك أن ما تعبر عنه المدرسة الألمانية من اختلاف بين المصطلحين إنما ينم عن جهل مطبق إن لم نقل عن جهل مركب للموضوع الذي يلمّون به أو لا ينم عن حصافة في الرأي،فالمسألة هنا مسألة ضمير لا غير. وما هي إلا حيله استعملت كحصان طروادة ،فالاستشراق" خلق من أجل الاستعلامات ووسيلة خداع، الاستشراق لا يستطيع عمل إلا هذا، لم يخلق من أجل الثقافة. الآداب لم تكن بالنسبة له هدف، بل غاية من أجل اختراق الأوساط الإسلامية، لتجميع الاستعلامات، أي قائد في الجيش الاستعماري لم يكن لديه مستشرقه الخاص؟"[16] من الواضح لكل ذي عينين أن الاستشراق عموما له جزءان كجبل جليدي، جزءه البارز هو فرع دراسة اللغات والآداب الشرقية، أما جزءه المغمور فيمثل الموقف الغربي من الشرق .و بتعبير آخر أضحى طرفه المكشوف هو الاستشراقيات (Orientalistik) وطرفة المستور هو الاستشراق في عمومة (Orientalismus).

وهذا ما درسه ادوارد سعيد في كتابه المثير للجدل "الاستشراق" بمعني الموقف الغربي من الشرق الذي غذى الأدبيات الاستشراقية.

وهناك جانب آخر لا يقل أهمية عن ما تقدم وهو أن: "تنوع رؤاهم الفلسفية ومناهجهم واختلافها لم يكن أبدا خارج الإطار الذي كانوا يتحركون داخله والذي كانوا يعملون جميعا على تقويته وتعزيزه، إطار المركزية الأوروبية"[17]، ويتعين علينا استثناء بعض المستشرقين وإنتاجهم من هذا الوصف حتى وإن كانوا يعدون على أصابع اليد.

فنحن نقف إذن أمام موضوع دراسة متعدد الأوجه،لذلك هو عرقلة معرفية تعيق فهم الأدبيات الاستشراقية، وذلك أمر عادي لان المستشرق في عمومه ليس معلقا في الهواء،و نود أن نشير هنا إلى المشاكل و الصعوبات التي تثيرها قراءة النصوص الاستشراقية سواء أكانت أكاديمية أو أدبية أو فنية.

في الأخير، أعتبر الغرب المستشرقين أنصاف آلهة لأنهم قاموا بفك رموز الشرق الغامض، مثلما فعل شومبوليون عالم المصريات الفرنسي عندما فك رموز الكتابة المصرية القديمة،وبدون المستشرقين يستحيل على الغربي فهم مكنونات وأسرار الشرق. وهكذا تتجلى أهمية الأدباء و الفنانين ورجال الدين والأكاديميين الذين اتخذوا من الشرق موضوعا لأبحاثهم، بل الأحرى أن نقول أن ما سبق ذكرهم كانوا مجرد بنادق للمدفعية



المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الاستعمارية، وخدام للغرب ومصالحه، وتقوية إطار المركزية الأوروبية. وقد يتضح هذا أكثر عندما نذكر الاستشراق الجديد(Néo orientalisme) الذي وظف الإرث الفكري القروسطي، وذلك برسم صورة سوداء عن الإسلام والمسلمين خاصة في الإعلام الثقيل، وهذا طبعا بإعادة تأجيج الصراع بين المسلمين والمسيحية الغربية من جديد. نقصد فتح مراجعات جريئة من اجل مناقشة الإنتاج الاستشراقي عموما ،و أن نعيدوا النظر في فهمه.

## الإحالات

1- Voir : le Nouveau Petit Robert : dictionnaire alphabétique et analogique de la langue française, Dicorobert INC., Montréal, Canada, 1993, P : 1548

2- ادوارد سعيد، الاستشراق، ترجمة: محمد عناني، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2006، ص.ص. 45-46

3- المرجع نفسه، ص.ص 45.46

4- محمد أركون، الفكر الإسلامي: نقد واجتهاد، ترجمة: هاشم صالح، لافوميك/ المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1993 ص. 214

5- جي . جي . كلارك، التنوير الأتي من الشرق، ترجمة: شوقي جلال، عالم المعرفة، الكويت، 2007، ص.ص. 159-160

6- رنا قباني، أساطير أوربا عن الشرق، ترجمة: صباحي قباني، دار طلاس، دمشق، ط3، 1993، ص. 55

7- ادوارد سعيد، الاستشراق، مرجع سابق، ص. 97

8- حسن حنفي، مقدمة في علم الاستغراب، الدار الفنية، القاهرة، ص. 29

9- Voir : Philippe Brachet, science et société, Ed publisud , France , 1993, P.100

10- ادوارد سعيد، الاستشراق ، مرجع سابق، ص.45

11- J.D.J, waarderburg, « mustashrikun», In Encyclopédie de l'islam, P .736 "Actuellement, la tendance est parler de science humaines d'Asie et d'Afrique nord,« et les savants orientalistes sont qualités par leur spécialisations culturelles historiques et régionale, et par leur discipline spécifique

12- Philippe Brachet, science et société, Op. cite, P. 100 « dans les sciences sociales sujet et objet dont le même nature : l'Homme»

13- CH. Bouamrane, L. Gardet, panorama de la pensée islamique, 2 eme Ed, Sindbad, paris, 1984, P . 13 « le respect pour "l'autre" et la sympathie intellectuelle pour l'objet étudié remplacement progressivement les jugements (injuste et faux portées de l'extérieur)»



المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

14-انظر : مقدمة مجلة فكر وفن، السنة الثالثة والأربعون، عدد 81 معهد غوته، ألمانيا، ص. 01

15- Voir : harrap's universal : dictionnaire allemand-anglais ERNEST Klett Gmbh, Stuttgart, Allemagne, 1999, P. 1051 1 ère Ed

16- Hadroug Mimouni, L'islam agressé, entreprise nationale du livre, Algérie, 1990, P. 18 « créer pour le renseignement et la manipulation, l'orientalisme ne pouvait faire que cela. Il n'a pas été créé pour la culture. Les belles lettres n'étaient pas pour lui un but, mais un moyen pour s'introduire dans les milieux musulmans, pour y collecter le renseignement. Quel était le chef d'une armée colonialiste qui n'avait pas son orientaliste ? »

17- محمد عابد الجابري، الرؤية الاستشراقية في الفلسفة الإسلامية: طبيعتها ومكوناتها الإيديولوجية والمنهجية، في كتاب مناهج المستشرقين، ج 1، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس، 1985، ص.319.



المنارة للاستشارات
www.manaraa.com